* تشظي الفضاء في قصص "ألف ليلة و ليلة"

"مقاربة سيميوثقافية"

Space fragmentation in the stories of a thousand and one nights

أ.د/ آمال منصور ،جامعة محمد خيضر/بسكرة (الجزائر)

a.mansour@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2021/01/19	تاريخ القبول: 2021/05/09	تاريخ النشر: 2021/06/01

Abstract:

A thousand and one nights its readers huge time distance, and provides to him multi and diverse knowledges .

Some of them are simple while others are of an important degree of intelligence and wisdon which leads us to support the point of view that its texts are collective production and can only be so.

This intervention tries to drive into the world of thousand and one nights and reality of the space in it and crosses an important distance between reality and illusion.

key words: Cultural system ; Counter system; the spatical space; the semantic space

مُلخّص البحث

تعالج هذه الدراسة التشكيل الفضائي في كتاب ألف ليلة و ليلة، باعتبار أن نصوص الليالي نصوص عالمية تقدم لقارئها ثقافة متنوعة و مختلفة.

تكشف هذه الدراسة الأنساق الثقافية الثاوية وراء المتن، حيث يحيل الفضاء فيها إلى ثنائية ضدية مهمة هي: مركز/ هامش.

الكلمات المفتاحية: نسق ثقافي؛ نسق مضاد؛ الفضاء المكاني؛ الفضاء الدلالي.

1. مقدمة:

قال مارسيل: "إنّ الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنّه الفضاء نفسه"

لعلّ الإبحار في عوالم "ألف ليلة و ليلة" مغامرة رائعة، تنقل قارئها إلى أزمنة غابرة ، فنصوصها نصوص تحكمها ثقافة متنوعة يصعب الحكم عليها، و كذا تصنيفها، لكن ما نحن على ثقة منه أنها عالم خصب للقراءة و التأويل، حيث تتعدد الشخوص، و تتشظى الفضاءات بشتى أشكالها،

و ترحل جميعا عبر الزمن إلى مكان بعيد جدا.

تقطع "ألف ليلة و ليلة" بقارئها مسافة زمنية هائلة، و تقدم له حشدا من المعارف المتنوعة، منها ما هو بسيط ينزل إلى مستوى العامة، و منها ما هو على درجة مهمة من الذكاء

و الحكمة، مما يجعلنا نؤيد الرأي القائل بأنّ نصوصها إنتاج جماعي و لا يمكن أن تكون إلا كذلك.

لعلّنا في هذه الدراسة لن نخوض في مسألة إشكالية: أصل "ألف ليلة و ليلة"؟ و إلى أي حضارة تنتمي؟ و يكفينا في هذه الدراسة أن نعتقد أنّ الخطاب الذي بين أيدينا بناء يتأسّس على أنساق ثقافية تحكم الذهنية الشرقية و تترجم كواليس المسكوت عنه؟

تحاول هذه الدراسة تقصّي أشكال الفضاء في عوالم "ألف ليلة و ليلة"، و تبرهن على تنوعه، حيث تقطع مسافة مهمة بين الوهم و الحقيقة.

2. في ماهية الفضاء: الحاضر الهارب في قصص الليالي:

إنّ "ألف ليلة وليلة" نسيج من الروعة، تأخذك أقاصيصه إلى عوالم من السحر و المتعة، ترفرف فيه أجنحة الخيال على بساط الريح، و المارد و القمقم و الشعوذة و الجن و العفاريت[1].

فالراوية في نصوص "ألف ليلة و ليلة" هي أنثى (شهرزاد)، حيث تنجح في تحويل سلطة الحكي من الذكورة إلى الأنوثة، أي من المركز إلى الهامش، كما تمارس الحكي باعتباره فعل

خلاص، فهي تفكر في هذه الحيلة لإنقاذ بنات جنسها من الموت، و تغامر بحياتها من أجل غيرها، قالت لوالدها الوزير:« بالله يا أبت زوجني هذا الملك، فإمّا أن أعيش و إما أن أكون فداء لبنات المدينة و سببا لخلاصهن من بين يديه »[2]

إنّ "شهرزاد" بالحكي لا تنقذ بنات جنسها فقط، بل تنقذ الملك أيضا من مسلسل طويل لا منتهي من القتل، و تداوي جرحه النازف جراء صدمة خيانة.

تنجح "شهرزاد" في الاستحواذ على اهتمام الملك، بربط جميع الحكايات ببعضها، و تتفنن في أساليب الحكي، و تضمن قصصها عددا هائلا من المعارف الطبية و الشعر و التاريخ و أقوال الحكماء، حيث تستثمر خبرتها الطويلة في القراءة.

تعلو قصص "ألف ليلة و ليلة" عن كونها مجرّد قصص للتسلية فهي لا تقل عن أي عمل مهم يقدم خبرة معرفية لقارئه.

لكن هذه المعرفة التي تسوقها هذه القصص تحيل دائما إلى المجتمعات الشرقية، بكل تقاليدها و معتقداتها و أحاسيسها و مشاعرها و سلوكاتها، فالشرق _هنا_ هو الفضاء الفسيح

و مسرح جميع أحداثها، فالفضاء فيها يمتلك هوية و ذاكرة، حيث يصبح منظومة ثقافية متكاملة.

فإذا أردنا البحث عن كلمة "فضا" في المعجم العربي ألفينا معناها يتفق في (لسان العرب) و (مختار الصحاح) في فكرة الاتساع و الخلو[3]. كما لا يختلف عنه في المعجم الغربي، فكلمة (ESPACE) تعني: étendue indéfinie qui contient et entoure tous les objets و أيضا (vacuité)[4].

و هنا نلاحظ اتفاق معناها في اللغتين العربية و الفرنسية حيث تتصل جميعا في فكرة الاتساع مكانيا.

و الحقيقة أن هذا الطرح اللغوي يوائم طرحنا النقدي الذي سيتخذ من مصطلح الفضاء، مصطلحا نقديا يتسع ليشمل الفضاء المكاني و النصّي و الدلالي، و هذا يختلف عما

تبناه د"عبد الملك مرتاض" بأن استبدل مصطلح (الفضاء) بمصطلح (الحيز) معللا« بأنّه يشير إلى دلالات النتوء و الوزن و الثقل و الحجم و الشكل »[5].

إنّ مصطلح الفضاء -في اعتقادنا- يصدق على الطرح السردي، و هو الأنسب ، و مصطلح "المكان" أيضا في نظرنا مصطلح ضيق، و لا يتسع إلى الأشكال الواردة في العمل السردي، فالمكان جزء من الفضاء، و هذا جلي من خلال التسمية.

3. التشكيل الفضائي في كتاب "ألف ليلة و ليلة" و انشطاره:

رغم أن عمل "ألف ليلة و ليلة" نص مركزي في الثقافة العربية، إلاّ أنّ الموقف العام إزاءها يبقى محل سؤال، فقد ظلت الثقافة العربية تعمل على تجنب النقاش في محتوى نصوصها، أو معالجتها علميا، فقد ورد في كتاب: نزيهة زاغز الموسوم بـ: التداخل السردي في المتن الحكائي أنه « منذ إنشاء قسم اللغة العربية كلية آداب جامعة القاهرة، أي منذ حوالي أكثر من ستين عاما لم تقدم في هذا العمل إلا رسالة ماجستير واحدة »[6]

كما أنّ جل الكتاب و الأدباء الذين تأثروا بهذا النص ينكرون ذلك، و جزء منهم يعترف بأنّه قرأ كتاب "ألف ليلة و ليلة" سرّا.

و تعزو نزيهة زاغز السبب وراء التبرم من خوض غمار هذا العمل، و هو ما رسخ بالذاكرة من أن "ألف ليلة و ليلة" هو عمل مشبوه، مثير لمشاعر جنسية مرضية[7].

لكن –في نظرنا- أنّ هذا السبب ليس الوحيد وراء تهميشها، فقد تنازعتها فضاءات عديدة، جعلت منها نصا هجينا، منها ما يتعلق المكاني(الجغرافي)، و آخر بالنص ذاته، و فضاء آخر يتعلّق بتأويل محتواها الدلالي، لذلك جاء الفضاء متنوعا و ثريا ثراء الثقافة الشرقية، و يمكننا أن نمثل هذا التشكيل في المخطط الآتي:(مخطط رقم 01)

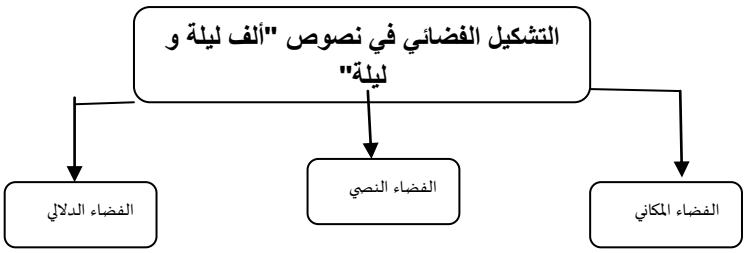

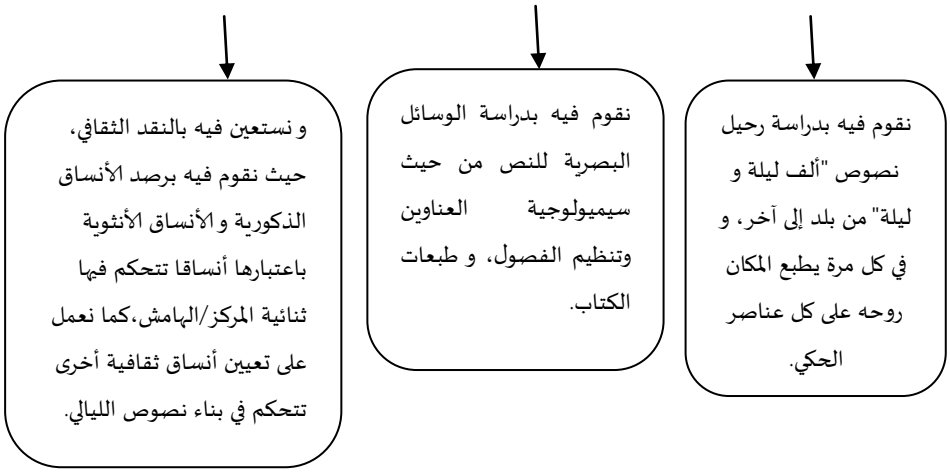

3-1-الفضاء المكاني(الجغرافي):

طافت الليالي البقاع، فأتت تشكيلة تعكس روح الشرق، ففيها ما يحيل إلى الإرث الفارسي، و منها ما يعيدنا للهند، و جزء مهم يعيدنا للحضارة العربية.

بدءا تحيلنا أسماء الشخوص الأساسية في هذا الكتاب : شهريار، شهرزاد، دنيازاد، إلى بلاد فارس، فاختيار هذه الأسماء من قبل مؤلفها أو مؤلفيها، لا يتناقض أبدا مع المحتوى المعنوي لليالي، فلطالما كانت بلاد فارس فضاء مشتركا مع بلاد العرب، يتقاسمان التاريخ المشترك و كثيرا من المعتقدات و الأعراف.

لكن "شهرزاد" أثناء سردها للحكايات كانت تنتقل من مكان إلى آخر، بما تقتضيه القصّة، ففي حكاية "قمر الزمان" تنتقل من بغداد إلى الشام ثم القاهرة في طرف البصر.

و ترحل شهرزاد إلى الصين و الهند في حكايات أخرى ، مثلما حدث في الليلة الحادية

و الثمانون بعد المائة تنقل أحداث قصة ابنة الملك "بدور" إلى الصين ، لكن تبقي على الذهنية الشرقية التي تحكم مجرى الأحداث، فيطغى على الفضاء البعد العجائبي تقول:« كان ذلك الملك يحب ابنته هذه التي وصفتها لك حبا شديدا، ومن محبته لها(..) بنى لها بذلك سبعة

قصور، كل قصر من جنس مخصوص، القصر الأول من البلور، و القصر الثاني من الرخام، و القصر الثالث من الحديد الصيني، و القصر الرابع من الجزع و الفصوص، و القصر الخامس من الفضة،

و القصر السادس من الذهب، و القصر السابع من الجوهر[8] »

إنّ هذا الوصف يخدم مسرح الأحداث و يوجهها لخدمة المحور الأساسي في النص،

و الوصف هو أسلوب عرض الفضاء،« و قد كانت نظرة النقاد التقليديين (بلزاكbelzak و جماعته) إلى الوصف نظرة قاصرة »[9] ، فوظيفته في نظرهم تزيينية فقط[10].

3-2- الفضاء النصّي:

إن كتاب "ألف ليلة و ليلة" عمل عالمي بامتياز، فرغم تصنيفه في خانة الحكي الشعبي، إلاّ أنّه عمل لم ينل حظه الذي يستحقه من القراءة و التأويل.

فقد عزف الدارسون عن تناوله كعمل مكتمل سرديا يقدم صورة صادقة عن فكر المجتمعات الشرقية و القيم التي تحكمها و الأنساق الثقافية التي تسيطر على أفق تفكيرها.

و النص كل مكتمل بجميع عناصره الخارجية و الداخلية، فكل العتبات التي تؤسسه لها علاقة بما يؤسس له من قيم، و"ألف ليلة و ليلة" كتاب طبع طبعات متعددة منذ ظهوره، فقد« طاف الدنيا بأرجائها(..) و ترجم إلى معظم لغات الدنيا، حيث طبع بالعربية لأول مرة في ألمانيا سنة 1825 بعناية المستشرق"هانجت"، ثم طبع طبعات عديدة أهمها طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة 1960 [11]»

انبهر الغرب بعالم "ألف ليلة و ليلة" لذلك ترجمت مرات عدة، و طبعت طبعات عديدة، و تأثر بمحتواها كتّاب غرب كثر، منهم "جوته" الذي كان يحفظ قصصها عن ظهر قلب،

و يستخدم رموزها في كتاباته و رسائله. و قد صاحبت أغلب الترجمات الغربية رسومات مساعدة، تعكس محتوى النصوص مثلما هو وارد في كتاب "فيليب بولانجيه" ترجمة: محمد دبس عام 2003.

ما يريح القارئ أثناء الاطلاع على قصص "ألف ليلة و ليلة" هو الألوان الهادئة التي اتخذها الناشر مساحة للقراءة، ففي الجزء (1) اختار اللون الوردي الهادئ، و في الجزء (2) اختار اللون الأزرق الفاتح، أما في الجزء (3) فقد اختار اللون البرتقالي الفاتح، و في الجزء الأخير كان اللون الأخضر الفاتح.

هذه الألوان تعد فضاء يعزز العالم الحالم الذي تقصّه القصص، إنّه عالم ينقلنا من عالم الواقع إلى عالم اللاواقع، حيث يتحقق كل شيء، فلا شيء يعد مستحيلا.

كما يأتي ترتيب الفصول بعدد الليالي التي قضتها "شهرزاد" في كنف زوجها الملك حتّى أنجبت له ثلاثة صبيان خلال مدة قدرناها ب: سنتين و 9 أشهر و يوم.

3-3- الفضاء الدلالي:

إذا كانت الليالي قد صنفت ضمن الأدب الشعبي، ربّما للغتها أو أخيلتها القريبة من فكر العامة، إلاّ أنها في الحقيقة تخفي بين طياتها أنساقا مضمرة ترسخ الثقافة السائدة.

لذلك يظهر "الفضاء الدلالي" مدججا بقيم عديدة، أحيانا متوافقة و أحيانا متناقضة فيما بينها تعزز فكرة أن المجتمعات الشرقية لا زالت تعيش حالة من عدم مصالحة الذات و مواجهة حقائق النفس.

فأغلب الصور ترسم فضاء يحكمه« منطق الاختلال المرجعي، إنّها ليست صورا للكمال أو الحقيقة المثالية، و إنّما هي صور للنقص و التشوه »[12]

حيث تؤسس قصص الليالي نوعين من الأنساق:

أ)- أنساق مركزية

ب)- أنساق هامشية

فالعالم بطبيعته ينقسم إلى مركز و هامش، ففيه يسعى المركز أن يحافظ على مركزيته، و الهامش يحاول جاهدا أن يغير من وضعه.

تبدأ قصص الليالي وفقا لهذه القاعدة الذهبية، حيث يمثل الملك(المركز) فهو يحتل فضاء السلطة/القوّة، الذي يعيش قصة خيانة و تتسبب هذه التجربة بقهر الهامش مهما كان نوعه مذنبا أو بريئا. و بذلك يفر سكان القرية خارج الدولة خوفا من عقاب الملك و غضبه.

لكن شهرزاد ترفض هذه القاعدة و تسعى إلى تحقيق توازن القوى، حيث تثق في كفاءتها و تبدأ في التفكير في خرق النظام الأبوي.

إن تملك "شهرزاد" لسلطة الحكي، يمنحها أملا في تغيير السائد، حيث تسيطر على انتباه الملك، و تتملك قلبه ثمّ عقله شيئا فشيئا.

صحيح أن "شهرزاد" أصبحت مصدرا للمعرفة بالنسبة للملك، لكنها بقيت رهينة الأنساق الثاوية في المعتقد الشعبي، فكل الحكايات التي ترويها تسير في ظل هذا الإطار، حيث تسيطر العفاريت و الجنيات على أفعال الأبطال مثلما يحدث بين "بدور" و "قمر الزمان"، فتنجح الجنية "ميمونة" في السيطرة على أحاسيس "قمر الزمان" و تكبحه عن الوقوع في المنكرات، بينما يحدث العكس مع العفريت "دهنش" الذي يسيطر على "بدور" التي تقع في شباك الهوى و رغبات النفس.

كما تسيطر الأنماط الهامشية للحكي على الكتاب منها:

- الحكي العجائبي
- الحكي الأسطوري
- الحكي الهزلي.

فالعجائبية عنصر مهم في التحكم في مسار الحكي، حيث تتغلب قوى العفاريت و الأشباح على الشخوص و أفعالهم ليست حرة بل هي مسيرة.

كما أن الهزل و الحكي المرح عنصر خصب في كتاب الليالي مثل : حكاية الخياط و الأحدب و اليهودي و النصراني، و حكاية الشاب و المزين البغدادي، و حكاية الشاب مقطوع اليد.

« و تسعى الصور الحكائية المرحة في ألف ليلة و ليلة إلى نقد القيم الثقافية و الاجتماعية لجمهور الشعب، عبر المحاكاة الساخرة، و التلفيق بين الأضداد »[13]

و الحقيقة أن جميع أشكال الحكي الواردة في الليالي تحاول نقد طبقات المجتمع من أجل الاهتداء إلى قيمة ترفع من جوهر الأفراد ، حتى حكايات الشطار مثل : حكاية دليلة المحتالة و علي الزئبق...تندرج في هذا المجال.

4. خاتمة:

تكتب **"ألف ليلة و ليلة"** تاريخها الخاص من خلال أنماط عديدة و متنوعة من الحكي، و تستعين بوسائل سردية توحي بقدر مهم من الذكاء و الفطنة، و تؤسس لفضاءات متحولة تتكاتف جميعا لتصنع شكلا سرديا متفردا لا يتكرر مرة أخرى عبر العصور.

وعلى الرغم من وجود "أنثى"تدير مسار الأحداث إلا أنها تمكنت في النهاية من جعل العمل يرقى إلى العالمية.

الهوامش:

[1]- ألف ليلة و ليلة، (مقدمة الكتاب كتبها د/حسن جعفر نور الدين) ، ج1، دار الكتاب الحديث، الجزائر،2011، ص: 06.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص: 11.

[3]- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1997،مادة : فضا، ص: 335.

[4]- في الموقع : قاموس المعاني

/http://www.almaany.com/fr/dict/ar-fr/%D9%81%D8%B6%D8%A7%D8%A1

[5]- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية "بحث في تقنيات السرد"، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت،1998 ،ص: 141، 142.

[6]- نزيهة زاغز، التداخل السردي في المتن الحكائي(دراسة إجرائية مقارنة بين ألف ليلة و ليلة و رواية في البحث عن الزمن الضائع)، منشورات مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها، بسكرة، ط1، 2010، ص : 22.

[7]- المرجع نفسه، ص :22.

[8]- المصدر، ج 2، ص: 185.

[9]- حمد العزي صغير، الفضاء و تشكلاته السردية في الرواية العربية الحديثة، في الموقع الآتي:
https://web.facebook.com/alamedbag/posts/425638900781445?_rdc=1&_rdr

[10]- الموقع نفسه على الرابط نفسه.

[11]- يسري عبد الغني عبد الله، ألف ليلة و ليلة: عندما يمثل الأدب الشعبي سمات مجتمعه، في الموقع:
http://bahrainanthropology.blogspot.com/2016/02/blog-post.html

[12]- شرف الدين ماجدولين، بيان شهرزاد(التشكلات النوعية لصور الليالي)، الدار العربية للعلوم-ناشرون، بيروت، ط1، 2010 ، ص: 303.

[13]- المرجع نفسه، ص، 369.